ISSN: 1999-5601 (Print) 2663-5836 (online)

Lark Journal

Available online at: https://lark.uowasit.edu.iq

*Corresponding author:

Yasra saad ali

Wasit Education Directorate

assistant teacher

Email: Ssh11r@yahoo.com

Keywords:

Literature of Al-Andalus Courts, Arabization in Al-Andalus, Decline of Al-Andalus Literature

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	2 Aug 2023
Accepted	18 Sep 2023
Available online	1 Oct 2023

The Literature of Al-Andalus Courts

A B S T R U C T

The term "The Literature of Al-Andalus Courts" refers to the literature that emerged during the Islamic period in Al-Andalus (Islamic Spain). It is considered a branch of Arabic literature and was influenced by various cultures that coexisted in Al-Andalus, including Islamic, Christian, and Jewish cultures. This literature exhibited diversity and richness, as it produced numerous poems and prose texts on various subjects such as love, wisdom, religion, nature, and more. It was also influenced by ancient Arabic literature. Prominent authors in the literature of Al-Andalus Courts include Al-Zahrawi, Ibn Zaidun, and Ibn Hazm Al-Andalusi, who left beautiful marks in this literary tradition. However, this literature is now considered lost due to various factors. The literature of Al-Andalus Courts had many poets and writers, but it is now in the forefront of the lost literary traditions

.© 202 3LARK, College of Art, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/

أدب الديارات في الاندلس

م.م.يسرى سعد علي /مديرية تربية واسط

الخلاصة:

ادب الديارات في الاندلس هو مصطلح يستخدم للإشارة إلى الادب الذي نشأ خلال الفترة الاسلامية في الاندلس وهو يعتبر فرعاً من فروع الادب العربي, وقد تأثر بالعديد من الثقافات المختلفة التي عاشت في الاندلس بما فيها الثقافة الاسلامية والمسيحية واليهودية , وقد تميز تنوعه وغناه حيث الفت العديد من القصائد الشعرية والنصوص النثرية في مختلف الموضوعات مثل الغزل, الحكمة, الدين, الطبيعة , وقد تأثر بالأدب العربي القديم من ابرز كتاب ادب الديارات الشعرية الثلاثة الزهراوي , ابن زيدون , ابن حزم الاندلسي وقد تركوا بصمات جميلة في ادب الديارات لكنهُ ادب مفقود بسبب عوامل عديدة, ادب الديارات لديه عديد من الشعراء والكتاب عدوا في مقدمة الشعراء.

الكلمات المفتاحية: أدب الديارات في الاندلس, المستعربين في الأندلس , ضياع أدب الديارات.

المقدمة:

ذاعت ثقافة العرب ببلاد الأندلس وانتشرت لغتهم ، وأصبح بين اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد كثير من الشعراء المجيدين والكتاب البلغاء الذين يحسبون في مقدمة شعراء العرب وكتابهم وبعد أن كانت الثقافة اللاتينية تسيطر على عقول الخاصة من السكان أصبحت اللغة العربية أو الثقافة العربية هي وثقافة الخاصة من السكان، حتى تسربت إلى الكنائس .وكانت الحياة الأدبية أكثر ذيوعاً من الحياة الفلسفية إذ لم يعن العرب هناك بالاشتغال بالفلسفة إلا في القرن الخامس الهجري . وكان الشعر المشرقي وهو أنفس الذخائر الأدبية حينئذ قد عرف طريقه سريعاً إلى قلوب وعقول الشعراء الأندلسيين، فكانت الرحلة دائمة بين الشرق والغرب من علمية وأدبية واقتصادية، وقد حفلت كتب الأدب بأخبار الأدباء والشعراء الكثيرين الذين كانوا يحجون إلى بغداد للاستماع إلى فطاحل شعراء المشرق أو رواية شعر كبار شعراء الأندلس.

وفي هذه الدراسة المبسطة تطرقنا إلى المستعربين من النصارى الذين استقروا في الاندلس وذاع ادبهم بما يعرف بأدب الديارات، ولكنه أدب مفقود لعوامل وأسباب كثيرة سنتعرف عليها خلال الدراسة .

المبحث الأول

من هم المستعربون في الأندلس

أطلق مصطلح المستعربين على النصارى وهم الذين أثروا البقاء على نصرانيتهم ومبادئهم القديمة ودخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم وعاشوا في كنفهم وتحت حمايتهم وتعايشوا معهم وتعلموا لغتهم العربية حتى اجادوها واتقنوا فنونها وعرفوا خفاياها وتكلموا بها .

أضف إلى ذلك فقد عرف النصارى أيضاً باسم مستعربين(بفتح الراء)على أن هذه التسمية قد مرت بمراحل عدة إلى ان استقرت فيذكر أن اذفونش السادس قد اطلق عليهم في قانونه لسنة (1101) أسم Muztarabes وكذلك اطلق عليهم اذفونش السابع في قانونه لسنة (١١١٨) اسم Muztarabes وقد دعاهم آذفونش المحارب ملك ارغونه في قانونه العام السنة ١١٢٦ باسم
Muztarabes.(عبد المطلب, 1999: 260)

ويشير ابن خلدون أن هذه التسمية أي المستعربون التي اطلقت عليهم لأن السمات والشعائر العربية عندما انتقلت اليهم من قبلهم اصبحوا بحال يختلف عن أهل نسبهم الأصلي وخاصة اللغة العربية التي تكلموا بها (ابن خلدون,1998: 122)

ويرجع اغلب النصارى في شبه الجزيرة الايبيرية إلى الأصول الإسبانية والرومانية فضلاً عن وجود قلة منهم من القوط وكان هذا العدد يأخذ بالتناقص بسبب دخول بعضهم في الإسلام، ونظراً لعدم وجود احصائية لسكان الأندلس لذلك من الصعب اعطاء رقم يوضح عدد هؤلاء في الأندلس.
(ابن خلدون,1998: 101)

ويذكر الأستاذ الدكتور عبد الواحد ذنون طه ان الأحوال الاجتماعية في بلاد الأندلس بعد الفتح العربي الإسلامي فقد تمكن الإسلام من القضاء على الظلم والاستغلال فقد حمل الحرية والمساواة لجميع عناصر السكان في شبه الجزيرة الأيبيرية الذين تمكنوا من التخلص من قيود الطبقة النبيلة وتحكمها في مصائرهم وقد ترك المسلمون لأهل البلاد الأصليين ومنهم النصاري حق اتباع قوانينهم والخضوع لقضائهم والاستمرار في ممارسة شعائر دينهم وان الجزية كانت تفرض على النصارى لقاء حمايتهم اما من دخل الإسلام منهم فقد أصبحوا هؤلاء أسوة بالمسلمين لهم مالهم وعليه ما عليهم وقد سقطت الجزية عنهم ولذلك سارع العبيد واغلبية السكان الإسبان الى اعتناق الإسلام (عبد المطلب, 1999: 90-91)

وكان للنصارى في كل مدينة يسكنوها رئيس وكان لهم قاضٍ من ملتهم يفصل بينهم في النزاعات والخصومات التي تقع بينهم يعرف بقاضي العجم،(ابو القرطية, د.ت: 750) واذا اختصم ذمي مع مسلم فكان الاحتكام الى قاضي الجند المسلم وهو الذي عرف بعد ذلك بقاضي الجماعة
(الونشريش, 1983: 560)

ومن الجدير بالذكر منذ بدايات الفتح العربي الأسلامي للأندلس اتسمت معاملة المسلمين لغيرهم من اهل البلاد الأصليين كالنصارى مثلاً بالتسامح لهذه الأقليات في احترام الحكام المسلمين للنصارى وغيرهم في المعاملات فلم يتدخل الحكام المسلمون في شئ من عقائدهم وترك لهم يعيشون بمدنهم ، أن هذه السياسة المثلى التي اتخذها المسلمون اتجاه النصارى عاملاً هاماً في اجتذابهم الى الاسلام والاقتناع به وخاصة العدالة والمساواة ولم يحاول المسلمون ارغام الناس على دخول الاسلام لأن هذا كان اسلوب العرب الذي اعتادوا عليه في نشر الإسلام في كل بلد يدخلونه فلم يتدخل الحكام في شيء من عقائدهم وترك لهم أن يعيشوا عيشتهم وهذا يمثل مظهراً من التسامح تجاه النصارى في الأندلس .

لقد ترك المسلمون للنصارى كنائسهم وسمح لهم بممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية بكل حرية وسمح لهم بقرع النواقيس للصلاة رغم ما تسببه من اذى لأسماع المسلمين ولقد ذكر ابن حزم الأندلسي بقوله :
(داود, 2014: 120)

اتيني وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس

(ابن حزم الاندلسي, 1980: 133)

ويصف شاعر آخر احدى كنائس النصارى بقوله :

وقد فَرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور واستئناس

وقرع النواقيس يبهج سمعه وبرق الحميا يسرج لمعه

حدور الماء منه ابرداً وباتَ ليلة بأحدى كنائس قرطبة

(المقري, 1968: 52)

المبحث الثاني

أدب الديارات في الاندلس.

تناقص عدد النصارى المستعربين نتيجة اعتناقهم الدين الإسلامي، أو هجرتهم إلى الشمال حتى أصبحوا أقلية بالنسبة إلى العرب والموالي والصقالبة والمولدين، فقد تنامى دور الديارات في إشاعة أسباب اللهو والترف والمجون التي غشيت سائر جوانب المجتمع الأندلسي، كما أنها تركت أثراً واضحاً في الحياة الأدبية، إذ أتاحت الجمهرة من الأدباء فرصة وصف ما شاهدوه أثناء مرورهم بها أو إقامتهم فيها، فقد غدت هذه التيارات منتجعاً لعدد كبير من أعلام الأدب والسياسة، ومقصداً لكثير من الشعراء الذين كانوا يذهبون إليها طلباً لراحة البال ،(الاصفهاني, 1991: 24-27) وهدوء النفس، وصفاء الفكر، بغية الشرب والقصف واللهو بعيداً عن قيود المجتمع وضوابطه .ولقد انطلق هؤلاء الأدباء يصفون الحياة في هذه الديارات بأبعادها الدينية والدنيوية المختلفة، وما كانوا ينعمون به من لهو وترف، ويتغنون بخمرتها، ويتغزلون براهباتها ،وغلمانها ويصورون فضائلها ومفاتنها، ويصيغون أحاسيسهم ومشاعرهم في هذه الأجواء في قصائد ورسائل ومقامات رائعة عرفت بأدب الديارات ، ومهما يكن من أمر ، فإن هناك عاملين أساسيين ساهما في ازدهار هذا اللون من الأدب، هما :

1. ولع الأندلسيين بخمر الديارات

إذ انتشر الخمر والشرب لدى كثير من الناس، وخاصة في مجالس الأنس والطرب وكان الملوك والوزراء والوجهاء يستهدونه ويهدونه وينعمون بشربه ، فقد تحدث أبو عبدالله بن مسلم في رسالته التي سماها " (ابن الابار, 1985: 94-95) المراحل، وخاطب بها أغلب صاحب ميؤرقة، عن تلك الأيام الجميلة التي قضاها في

رحاب المظفر باديس ابن حبوس (ت ٤٦٧هـ)١٠٧٤م صاحب غرناطة ، وأسرف في وصف مجالس الخمر والغناء هناك، وما كانوا ينعمون به من فرح وسرور، حيث يقول» :فيا له من أنس وطيب بين الخورنق والكثيب، في مجلس من أهل كأنما ألفت قواريره من خدود وثغور ، وثماره من نهود ونحور، صعدنا فيه إلى العلياء، وصرنا كأننا السماء، نشرب النجوم بالأقداح، ونحيي الجسوم بالأرواح ، فبتنا فاكهين فرحين نزمر بالكؤوس، ونرقص بالرؤوس، ونثاقف الإخوان، ونواقف الندمان مواقفة الكرام، نشرب المدام، بحد ،الحسام، نسقي ود الصديق للصديق، ونطلب الصبوح بنار الغبوق، حتى أخجلنا الشمس بضياء الراح، وقمنا نقد الراح في ضوء الصباح ". (بن مسلم, 1970: 427)

واشتد سماجة الصنهاجي وزير الأمير عبدالله بن زيري أمير غرناطة (ت٤٨٣هـ / ١٠٩٠م) في منع اتخاذ الخمر، وجعل إزاء ذلك القتل غريمة لم يحل عقدها، ولا فسخ حكمها "(بن مسلم, 1970: 427),وتميز أهل قرطبة " بكسر أواني الخمر حيثما وقع عين أحد منهم عليها (بروفنسال ,1956: 234) ، وكان عامة إشبيلية يبيحون دم شارب الخمر، وكانوا يرمونه بالحجارة ويطاردونه من حارة إلى حارة (المقري, 1968: ص123) ومهما يكن من أمر ، فقد تسامح الأندلسيون في شرب الخمر شريطة ألا يبلغ حد الشكر، وإلى ذلك يشير الشقندي في وصف ما كان يقع في وادي إشبيلية بقوله» :وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكرة لا ناه عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤد الشكر إلى شر عربدة، وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا إزالته. (عبدالله بن خليل, د ت : 179)

ةونتيجة لهذا التشدد في منع اتخاذ الخمر سعى بعض الأندلسيين إلى التماس الخمر خارج بيوتهم في حانات الديارات ودور الضيافة الملحقة بها، إذ كانت معتقات الديارات هي المشهورة في الآفاق لحذق خماري النصارى باعتصارها، وتميزهم بنظافة الآنية، وحسن الملبس، والإجادة في اختيار أنواع الأشربة، وتعتيقه،(المقري,1968:د ص) فقد كان أشهر أنواع الخمور في قرطبة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي الخمر المنسوب إلى دير الرصافة، واشتهر دير الروم في إشبيلية بخمرته المعتقة (حبيب, 1938: 320- 323)

ب - تردد الأدباء الأندلسيين إلى الديارات والكنائس

لقد كان عند الأندلسيين خصلتان محبة الشباب، وشرب الخمر (المقري,1968:د ص) أما حب الغلمان، فقد تسرب من قصور الأمراء والوزراء إلى بيوت عامة الشعب، حتى غدا ظاهرة اجتماعية مألوفة حتى عند الفقهاء المعروفين بوقارهم. (الزجالي, 1971: 207)

وربما كان لشيوع عادة اقتناء الغلمان واضطراب الأحوال الاجتماعية والنفسية وما رافق ذلك من انتشار الترف والبذخ واللهو في بعض جوانب المجتمع الأندلسي - أثر فعال في شيوع ظاهرة حب الغلمان التي اهتم الشعراء الأندلسيون بتصويرها.

(الأشبيلي, 1989: 61- 60)

ولقد زخرت الديارات بعدد كبير من الغلمان الملاح الذين كان القائمون عليها يستعينون بهم في أداء بعض الطقوس والمراسم الدينية في الأعياد والمواسم المختلفة، كحمل المجامر حول القسيسين والرهبان، وخدمة الضيوف ومتطرحي الحانات الملحقة بها، وفي ذلك يقول أبو عبدالله بن أبي الخصال(ت 539هـ /١١٤٤م)، على لسان بطل مقامته التي عارض بها الحريري، واصفاً الغلمان والجواري الذين كانت تغص بهم إحدى حانات الديارات» فما شئت من بدر قد انتهى، ووليد كالشها، وشمس تسلب النُّهى، من كل متفضل تعشي محاسره، ومتبذل تبدو محاسنه، يضع السهام مواضع القتل، ويقتاد القلوب بكل مغار الفتل.

(الشنتريني, 1970: 207-209)

كما كان هيام بعض وكان بعض الشعراء والأدباء يترددون إلى الديارات والكنائس لمشاهدة غلمان النصارى من المستعربين والتغزل بهم الشعراء الأندلسيين بفتيات النصارى وراهبات الديارات دافعاً قوياً لتردد هؤلاء الشعراء إلى الديارات والكنائس، في الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة لرؤية هؤلاء الراهبات وهن يشاركن في المواكب الدينية لتأدية المناسك والشعائر الدينية المختلفة. (الأندلسي, 1988: 438)

فقد هام ابن الحداد الوادي آشي (ت ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) حباً بديرانية من وادي ،آش، كان قد رآها فعلق بها واستفرغ معظم شعره فيها، وقد دفعه ذلك إلى التردد إلى الديارات والكنائس، مما أتاح له الفرصة أن يمدنا برؤية فنية قد تدعم إلى حد كبير الواقع الموضوعي، بما فيه من معلومات دقيقة الدينية التي كان يمارسها المستعربون في وادي آش.

(الأندلسي, 1988: 440)

المبحث الثالث

ضياع أدب الديارات الاندلسية

هناك مجموعة من الأسباب التي أدت إلى ضياع جلّ أدب الديارات، ولعل من هذه الأسباب صدود المؤلفين الأندلسيين عن التأليف في أخبار الديارات ورهبانها وجمع المنظوم والمنثور المقول في كل دير وما كان يجري فيه، كما فعل المشارقة الذين جمعوا في الديارات تواليف كثيرة. (الشنتريني, 1970: 693) كما إن ارتباط أدب الديارات باللهو والمجون والخلاعة والهزل والاستخفاف بالأعراف العامة والقيم الإسلامية حال دون عناية المؤلفين الأندلسيين بتدوينه والاهتمام به وخاصة أولئك النقاد الذين اتخذوا المعيار الأخلاقي أساس نظرتهم إلى الأدب، فقد أسقطوا نماذج كثيرة من الشعر الأندلسي ولم يدرجوها في مؤلفاتهم، مثل الهجاء والقدح والغزل الفاحش والمديح المغرض؛ لأنها لا تتفق والمعايير الأخلاقية التي التزموا بها ، فقد رأى ابن حزم في الأغزال والرقيق من الشعر ، وهما من موضوعات أدب الديارات دعوة إلى الفتنة وحضاً على الفتوة، وصرفاً للنفس إلى الخلاعة واللذات، وتسهيلا لانهماك الشطار في الفسق (الشابشتي,1966: 48-36)

ولقد أشار الحجاري في كتابه المسهبإلى ظاهرة صدود المؤلفين الأندلسيين عن تدوين الأشعار الهزلية والفكاهات والنوادر قائلاً :ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات والتركيبات وأنواع المضحكات ما تملأ الدواوين كثرته، وتضحك الثكلى وتسلي المسلوب قصته . . . إلا أن مؤلفي هذا الأفق طمحت هممهم عن التصنيف في هذا الشأن، فكاد يمر ضياعاً.

(ابن حزم, 1983: 67 68)

ويبدو أن موقف الفقهاء ومصنفي كتب الحسبة المعارض لاختلاط المسلمين بالنصارى قد أدى إلى ضعف عناية الأندلسيين بتدوين أخبار التيارات وأدبها ، فقد انتقد هؤلاء الفقهاء والمصنفون مشاركة عامة المسلمين النصارى في أعيادهم ومناسباتهم الدينية؛ لأن في ذلك مدعاة إلى الفساد الاجتماعي، فقد دعا ابن عبدون(ت ٥٢٧ه) ـ (١١٣٢م) النساء المسلمات إلى عدم مصاحبة المسيحيات إلى الكنائس بعد أن اعتادت نساء إشبيلية على عقد صداقات معهن

(المقري,1968: 156)

وزيادة على ذلك، فقد وقف بعض المثقفين الأندلسيين موقفاً متشدداً إزاء التفاعل الثقافي بين المسلمين والمستعربين، إذ رأوا أن هذا التفاعل يتضمن زرعاً لبذور التراجع الفكري وبداية الانحطاط الحضاري الذي

يهدد الشخصية الثقافية الأندلسية، فقد وجهوا انتقاداً شديداً لخاصة الأندلسيين الذين كانوا يعنون باختيار الجواري والإماء، ويعهدون إليهن بتربية أبنائهم، حتى إذا ما بلغوا مبلغ الرجال التحقوا ببيئات الفرنجة، وهي بيئات غريبة عنهم في مقوماتها ومبادئها، ولهذا لا بد أن تترك هذه الظاهرة آثاراً سيئة عليه، فلا بد أن يتكلم الواحد منهم بلسان الروم الذي تربى بينهم، وتزيا بزيهم، ويقول بقولهم، ويميل إليهم، وفي ذلك يقول أبو المطرف بن المثنى(ت ٤٥٨ه /-1065م) :وهل نحن أهل هذه الجزيرة النائية عن خيار الأمم، المجاورة لجماهير العجم إلا أجدر البرية باللكن وأولاها بعدم الفطن، وأخلقها بالخرس، فلم يقرع سمع ابن من أبناء خاصتها عند ميلاده، ولا خامر طبع الرضيع منهم في مهده، إلا كلام أمة ،وكعاء أعجمية خرقاء، ولا ارتضع إلا ثديها، ولا اكتسب إلا عيها ولا سكن إلا في حجرها، ولا مرن إلا بتدبيرها، حتى إذا صار في عديد الرجال وانتهى إلى حدود الكمال باشر طوائف النصرانية فخاطبهم بألسنتهم، وجد في حفظ لغتهم، وعاني طباعهم، وكابد أخلاقهم. (عبدون, 1955: 48)

ومهما يكن من أمر ، فقد وصل إلينا عدد من النصوص الشعرية والنثرية التي تنتظم في سلك أدب الديارات، وتلقي الضوء على حياة المستعربين في الأندلس، وهي تتراوح بين اتجاهين؛ أحدهما فني يشكل الكثرة الغالبة من هذه النصوص، ويعبر عن تجارب واقعية عاشها الشعراء في ظل الديارات والمتنزهات والبساتين والحانات الملحقة بها، ومن الشعراء الذين يمثل نتاجهم هذا الاتجاه ابن الحداد الوادي آشي الذي اشتهر عنه أنه أحب في صباه فتاة نصرانية، فذهبت بلبه، مما دعاه إلى أن يقول في المسيحية وما فيها من طقوس وشعائر دينية كالتثليث والزنار والإنجيل والقسس والكنائس وغيرها .أما الاتجاه الثاني، فهو الاتجاه التقليدي الذي يقوم على محاكاة أساليب المشارقة ومساجلتهم في هذا الميدان، وبخاصة طريقة أبي نواس في وصف طروق الحانات ليلاً مع عصبة من الندامى، ويعبر ذلك عن تجربة فنية متخيلة في الأصل . ولقد كان هذا الاتجاه قليلاً، ومن الأمثلة عليه سينية أبي عبدالله محمد اللخمي الطرسوني(ت ٧٣٠ه١٣٢٩م ـ) التي قدم لها لسان الدين بن الخطيب بقوله : وتذاكرنا يوماً أساليب الشعراء وأفضينا في ذكر ابن هانيء(أبي نواس الحسن بن هانىء) فنظم لي في طريقته هذه الأبيات مساجلاً لمثلها مما ثبت في موضعها في شعر (الشنتريني,1970: 237)

المبحث الرابع

شعر الديارات

جاء شعر الديارات متنوعاً في الغزل وشرب الخمر وبيان بعض العادات السائدة عند النصارى وغيرها من الأغراض، وقيل في خروج النصارى المستعربين رجالاً ونساء، قساوسة ورهباناً وراهبات، أيام الأعياد إلى الساحات المحيطة بالديارات والكنائس في مواكب عظيمة لتأدية الشعائر الدينية، حيث يتابع هذه المواكب ويخرج إلى المتنزهين المعروفين بالأريطي والدويحات ليرقب من تحت أفياء الشجر تحركات نويرة وأهلها في يوم عيد الفصح المجيد، بعيداً عن رؤية أهله البدو الذين كانوا يزدرون بالفتيات المسيحيات من جهة، وبعيداً عن رؤية نويرة؛ لأنها كانت دوماً تصده من جهة أخرى، حيث يقول مخاطباً صاحبيه بأن ينعطفا نحو تلك الفتيات النصرانيات؛ لأن بينهن من يحب. (بحر السريع)

(ابن الخطيب, د.ت: 79)

وعرجا يا فتيي عامر بالفتيات العيسويات
فإنّ بي للروم رومية تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلة بين صواميع وبيعات
وفي ظباء البدو من يزدري بالظبيات الحضريات
أفصح وجدي يوم فصح لهم بين الأريطي والدويحات

كما ويقدم لنا ابن الحداد وصفاً رائعاً لمواكب احتفالات النصارى بالعيد وصلاتهم وغنائهم، فقد كان الأسقف يصلي فيهم صلاة العيد بخشوع وإنصات، والقساوسة أمامه ذوبين يدي كل منهم عصاه :(بحر السريع) (القفطي, 1970: 90-100)

وقد أتوا منه إلى موعد واجتمعوا فيه لميقات
بموقف بين يدي أسقف ممسك مصباح ومنساة
وكل قس مظهر للتقى بأي إنصات وإخبات

كما يقدم لنا ابن الحداد وصفاً جميلاً للألحان والتراتيل والأصوات التي كانت تنبعث وهم يتلون صحف أناجيلهم التي تزيد من إبعاد النصرانيات ومن بينهن نويرة عنه من جهة، وتزيد من شوقه إليهن من جهة ثانية: (بحر السريع) (القفطي, 1970: 159)

وقد تلوا صحف أناجيلهم يزيد في نفر يعافيرهم
بحسن الحان وأصوات عني وفي ضغط صباباتي

ويستغل ابن الحداد الفرصة ليقدم لنا وصفاً بديعاً لجمال تلك الفتيات العيسويات، فقد استدرجن قلب القس حتى نسي أنه يقوم بواجباته الدينية فسرحت عينه فيهن ، وغدا كالذئب يبغي افتراس نعجات القطيع، غير أن ابن الحداد يحاول أن يلتمس عذراً للقس على فعله؛ لأن هؤلاء الراهبات بمحاسنهن وجمالهن يستدرجن قلب الخلي إلى الهوى والعشق، يقول :بحر السريع

(القفطي, 1970: 158 159)

وعينه تسرح في عينهم كالذئب يبغى فرس نعجات

وأي مرء سالم من هوى قد رأى تلك الظبيات

ويستغل ابن الحداد في قصائده الديرانية بعض قيم الدين المسيحي وخاصة التسامح والمحبة للنفاذ إلى قلب نويرة لعلها تتراجع عن صدودها ، فهي على الرغم من تمسكها بدينها وحرصها على تأدية الشعائر وحضور الأعياد، إلا أنها تخالف تعاليم عيسى عليه السلام الذي لم يأت بدين قساوة، ولم يقس على مريض مدنف، كما تفعل نويرة، لهذا فقد ارتأى أن يقص قصة حبه على القس عساه أن يزوجه بها فينقذه من الموت المحتم؛ لأن هذا القسيس سيكون ملتزماً بتعاليم المسيح متسامحاً معه، يقول : بحر الطويل (القفطي, 1970: 159)

ولا بد من قضي على القس قصتي عساه مغيث المدنف المتغوث

فلم يأتهم عيسى بدين قساوة فيقسو على مضنى ويلهو بمكرث

ويشير ابن الحداد في ديرانياته إلى مواثيق الذمة والمهادنة التي منحها المسلمون للمسيحيين، ويصرح أنه أخذ أسيراً من طرف نويرة على الرغم من عهد السلم والهدنة الواقع بين أهله وأهلها ، حيث يقول:بحر الطويل (القفطي, 1970: 171)

سبتني على عهد من السلم بيننا ولو أنها حرب لكانت هي السَّبا.

ويعقد ابن الحداد مقارنة بين المسائل الجوهرية التي تفرق بين الإسلام التي يقوم على توحيد الله تعالى والمسيحية التي تقوم على الإيمان بالأقانيم الثلاثة (التثليث) ، فهو الحنيفي الموحد قد ضل طريق الهداية بولعه بنويرة العيسوية التي تؤمن بالتثليث ، يقول بحر الطويل)

(القفطي, 1970: 306)

وفي شرعة التثليث فرد محاسن تنزل شرع الحب من طرفه وحيا

وأذهل نفسي في هوى عيسوية بها ضلت النفس الحنيفية الهديا وعلى الرغم من أن بعض الأدباء الأندلسيين من الأضياف ومتطرحي الحانات والمترددين على التيارات الأندلسية، قد أظهروا إعجابهم بما كانوا يشاهدونه من احتفالات النصارى بالمناسبات الدينية وما يقوم به القسس والرهبان من أداء الشعائر الدينية ومدارسة الإنجيل وغيرها، إلا أن هنالك بعض الأدباء وأصحاب كتب الحسبة المتشددين الذين أشاروا إلى انحراف بعض الديارات والكنائس عن الأهداف السامية التي أنشئت من أجلها واختلال ،أمورها وفساد أخلاق رهبانها وقساوستها، وتحولها من دور للعبادة إلى أوكار للهو والترف والمجون ومعاشرة القيان والغلمان وإلى ذلك يشير أبو حفص بن الشهيد عند وقوفه على أطلال كنيسة دائرة(بحر الكامل)

(الشنتريني,1970 : 683)

كم صاد إبليس بها من تائب بحبائل ألقى بهن ترهب
سقياً لها من دار غي لم يزل فيها كريمٌ بالملامح معذبُ
بئس المصلى إن أردت تعبداً ولكن كان نعمَ المشربُ
من جؤذر وبدا عليه يخطبُ وكم ابتنى القسيس فيها منبرُ
فيها بأفواه الندامى تغرب كلا وما زالت نجوم مدامة

الخاتمة:-

تكشف هذه الدراسة من خلال تتبع صورة المستعربين في أدب الديارات في الأندلس عما يلي:

أولاً : لقد شكلت الديارات الأندلسية مصدر إلهام لكثير من الشعراء والكتاب، وحافزاً فنياً للإبداع في هذا اللون من الأدب الوجداني اللاهي الذي تضمن وصفاً لمشاهدات الشعراء والكتاب المسلمين في البيئات الديرانية، وهي بيئات نصرانية خالصة ومختلفة في مقوماتها ومبادئها عن البيئة الأندلسية العامة التي كان الطابع العربي الإسلامي هو الطابع السائد فيها .ونقل إلينا التجارب الواقعية التي عاشها الأدباء الأندلسيون في ظل ديارات النصارى المستعربين وحاناتهم، إلى جانب التجارب المتخيلة التي تمثلها بعض الأدباء، وعاشوها في وجدانهم وأسبغوا عليها من ذاتهم وصميم وهذان اللونان من التجارب لا يختلفان في كثير من تفصيلاتهما عن تلك التجارب التي خاضها الشعراء المشارقة في ظل الديارات النصرانية، من أمثال أبي نواس، وابن القيسراني وغيرهما .

ثانياً : أن الشعراء الأندلسيين قد تأثروا بأساليب شعراء الديارات المشارقة ومعانيهم، من أمثال أبي نواس وغيره من شعراء اللهو والمجون ، وقد أضافوا إليها مما أملته عليهم ظروف بيئتهم الأندلسية؛ فجددوا في بعض معاني الغزل بالديرانيات، ووصف الخمرة ،النصرانية والحديث عن الشعائر الدينية . كذلك تأثر الكتاب الأندلسيون بتلك الرسائل والمقامات التي ابتدعها عدد من كتاب المشارقة، من الزمان الهمذاني والحريري وغيرهما، والتي انتقلت فيما بعد إلى الأندلس، واستقوا منها، ولم يقفوا عند هذا الحد فحسب بل طوروا في معاني النثر وابتكروا جوانب جديدة سبقوا إليها المشارقة ، ووسعوا بها ميادين أدب الديارات، ومن ذلك أنه كان للمقامة الخمرية لبديع الزمان الهمذاني - وهي من المقامات التي نقلت موضوع الديارات من الشعر إلى النثر - أثر في أدب الديارات، إذ إنهم نقلوا موضوع الديارات عندهم من الشعر إلى النثر، كما فعل السرقسطي الذي أفرد مقامة خاصة للحديث عن الحانات الديرانية في الأندلس أسماها المقامة الخمرية . ونجد عدداً آخر من الكتاب الأندلسيين من أمثال ابن الشهيد، وابن أبي الخصال وغيرهما، كانوا قد روضوا أقلامهم على فن أدب الديارات، وجالوا في ميادينه معتمدين على بلاغتهم في التعبير عن خلجات نفوسهم وخطرات قلوبهم، وأمور الحياة داخل التيارات والحانات الملحقة بها، ما يتصل بذلك من مجالس اللهو والمجون والخمرة مما جعل لنثرهم الديراني قيمة كبيرة في استكمال صورة المستعربين التي وردت في الشعر

ثالثاً : أن مشاعر الكراهية والتعصب ضد النصارى المستعربين لم تظهر في نصوص أدب الديارات، على الرغم من النفرة الطبيعية الواقعة بين المسلمين والنصارى التي مردها الاختلاف في مسائل عقيدية جوهرية أشار إليها الأدباء، وعلى الرغم من إساءة النصارى المستعربين لتسامح المسلمين معهم، وخاصة في عصر الطوائف وما بعده، وما كان من تعاونهم مع أمراء الممالك النصرانية الذين شنوا حرباً دينية على الأندلس، تستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين ؛ فقد جاء أدب الديارات تعبيراً عن التعايش الاجتماعي بين المسلمين والنصارى في ظل قيم التسامح الإسلامي، وهو تعايش لم يكن يمس جوهر ديانتيهما، بل يسهم في تعميق العلاقات بينهم .رابعاً : أن الأدباء الأندلسيين كانوا على معرفة عميقة بطرائق حياة المستعربين في الأديرة والكنائس، وطبقات رجال الدين فيها، من بطاركة ، وأساقفة، وقساوسة ورهبان وغيرهم، وما يدور في هذه الأماكن الدينية من ألوان العبادة، وأنواع الشعائر الدينية، وأساليب إحياء المواسم، والأعياد النصرانية المختلفة، وما يجري في الحانات الملحقة بها من لهو ومجون ؛ لهذا فقد ضمن الأدباء الأندلسيون قصائدهم ومقاماتهم ورسائلهم عدداً كبيراً من التعابير والمصطلحات والألفاظ والصور الدينية النصرانية المختلفة ، مثل :

التثليث والإنجيل والقس، والنساك والصلبان والفصح، والمسوح والزنانير وغيرها، وهي كانت مألوفة لدى المسلمين في الأندلس ألفاظ ومصطلحات

خامساً :أن الشعراء والكتاب المستعربين الذين أجادوا في بلاغتي المنظوم والمنثور، من أمثال ابن المرعزى الإشبيلي شاعر المعتمد بن عباد ، لم يسهموا في ما انتهى إلينا من أدبهم في وصف تقاليد أبناء ملتهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية والدينية، مما حال دون وقوفنا على كثير من التفصيلات الاجتماعية والدينية الدقيقة المتصلة بحياة المستعربين، التي لم يتنبه إليها الأدباء المسلمون الذين اتصلوا بهم .

سادساً : أن مواقف الأدباء الأندلسيين من ظاهرة التردد إلى ديارات المستعربين كانت متباينة، وردود أفعالهم تجاهها كانت متنوعة ، فمنهم من أقبل عليها رغبة في الملذات والمتع والمجون، ودعا غيره إليها لتحقيق حاجاته الحسية ومطالبه الوجدانية ومنهم من وقف منها موقف الناقد الملتزم بالقيم الخلقية والفضائل الإسلامية، وعد التردد إلى الديارات والكنائس والحلول بالنصارى من الأدواء والمعوقات في مسيرة المجتمع الأندلسي .

المصادر والمراجع :-

1. الديارات النصارنية في الإسلام، حبيب زيّات مجلة المشرق ، م 36 ، تموز - أيلول، 1983.
2. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام، ق1، م2
3. العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ابن خلدون، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1998
4. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ابن الخطيب، تحقيق :إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت
5. المحمّدون من الشعراء وأشعارهم علي بن يوسف القفطي، تحقيق :حسن معمري، دار اليمامة، الرياض، 1970.
6. المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء افريقيا والاندلس والمغرب أبو الياس احمد بن يحيى الونشريش، تحقيق :محمد محي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983 ;اهل الذمة في الاندلس خلال الحكم الأموي، عبد المطلب مصطفى رجب، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، 1999 .
7. تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ابن الخطيب، تحقيق وتعليق ... ليفي بروفنسال، ط ٢ ، دار المكشوف، بيروت، 1956 .
8. تاريخ افتتاح الاندلس، أبو بكر محمد بن عمر ابن القوطية، ترجمة خوليان ريبيراً، د.ت، ص 75 .

9. تاريخ النصارى في الاندلس، كحيلة عبادة، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، 1993. دراسات أندلسية، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004.

10.رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، في ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، محمد بن أحمد التجيبي ابن عبدون، تحقيق إ ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة،. 1955.

11.رسائل ابن أبي الخصال، أبو عبد الله الغافقي الأندلسي ابن أبي الخصال، تحقيق :محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، 1988 .

12.طوق الحمامة في الألفة والآلاف في رسائل ابن حزم الاندلسي، تحقيق :إحسان عباس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980 .

13.طوق الحمامة في الألفة والآلاف في رسائل ابن حزم الاندلسي، تحقيق :إحسان عباس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980.

14.قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، أبو النصر الفتح بن محمد الأشبيلي ابن خاقان، تحقيق :حسين خريوش، ط1، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، الزرقاء، 1989 .

15.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد التلمساني المقري، تحقيق :إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968 .

16.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب أحمد بن محمد التلمساني المقري، تحقيق :إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968 .

17.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني، تحقيق :إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1970.

18.الحلة السيراء، أبو عبد الله محمد ابن الأبار تحقيق حسين مؤنس، ط2 ، دار المعارف، القاهرة، 1985 .

ينظر الديارات، أبو الفرج عبد الحسين الاصفهاني، تحقيق :جليل العطية، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، 1991 .

19.الديارات، علي بن محمد الشابشتي، تحقيق :كوركيس عواد، ط2، مكتبة المثنى، بغداد، 1966 رسالة مراتب العلوم، في رسائل ابن حزم الاندلسي، علي بن أحمد ابن حزم، تحقيق :إحسان عاس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983

20.اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ابن سعيد، اختصره أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن خليل، تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب اللبناني، بيروت،(د.ت)

21.أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه ري الأوام ومرعى السوام، أبو يحيى عبدالله الزجالي، تحقيق محمد بن شريفة، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم العالي، فاس، ١٩٧١.

22. .موقف المسلمين من اهل البلاد الأصليين في الأندلس، عصام كاطع داوود، دراسات تاريخية، العدد السادس عشر، حزيران 2014

Sources and references:

1. The Christian Homes in Islam, Habib Zayat, Al-Mashreq Magazine, Issue 36, July-September, 1938
2. Al-Dhakhira in the virtues of the people of the island, Ibn Bassam, vol. 1, vol. 2
3. Lessons and Divan Al-Mubtada and Al-Khabar, Ibn Khaldun, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Cairo, 1998
4. The latent battalion in those we met in Andalusia from the hundred poets Ibn al-Khatib, investigation: Ihsan Abbas, Dar al-Thaqafa, Beirut, d.t.
5. The Muhammadans among the poets and their poetry, Ali bin Yusuf Al-Qifti, investigation: Hassan Maamari, Dar Al-Yamamah, Riyadh, 1970
6. The Arabized Arab and the Arabized Collector of the Fatwas of African, Andalusian and Moroccan Scholars, Abu Elias Ahmed bin Yahya Al-Wansharesh, investigation: Muhammad Mohi, Dar Al-Gharb, Beirut, 1983 The Dhimmis in Andalusia, the Umayyad Rule, Abdul Muttalib Mustafa Ragab, MA Thesis, Faculty of Arts, Yarmouk University 1999.
7. The History of Islamic Spain or the Book of Aamal Al-Alam in Whom the Allegiance of Allegiance Before Dreaming from the Kings of Islam, Ibn Al-Khatib, investigation and commentary ... Levi Provencal, 2nd edition, Dar Al-Makshuf, Beirut, 1956.
8. The History of the Inauguration of Al-Andalus, Abu Bakr Muhammad Bin Omar Ibn Al-Qutia, translated by Julian Ribera, Dr. T, pg. 75.
9. The History of the Christians in Andalusia, as a trick of worship, the Modern Islamic Press, Cairo, 1993, Andalusian Studies, Dar Al-Madar Al-Islami, 1st Edition, 2004
10. Ibn Abdoun's Treatise on Judiciary and Hisba, in Three Andalusian Letters in the Literature of Hisba and Al-Muhtasib, Muhammad bin Ahmad al-Tajibi Ibn Abdoun, investigation by Levy Provencal, French Scientific Institute of Oriental Archeology, Cairo, 1955.

11. The Letters of Ibn Abi Al-Khasal, Abu Abdullah Al-Ghafiqi Al-Andalusi Ibn Abi Al-Khasal, investigation: Muhammad Radwan Al-Daya, Dar Al-Fikr, Damascus, 1988.
12. The collar of the dove in intimacy and thousands in the letters of Ibn Hazm Al-Andalusi, investigation: Ihsan Abbas, 1st edition, The Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1980.
13. The collar of the dove in intimacy and thousands in the letters of Ibn Hazm Al-Andalusi, investigation: Ihsan Abbas, 1st edition, The Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 1980
14. Qalayed Al-Aqyan and the virtues of Al-Ayan, Abu Al-Nasr Al-Fath bin Muhammad Al-Ashbili Ibn Khaqan, investigation: Hussein Khreyoush, 1st edition, Al-Manar Library for Printing, Publishing and Distribution, Zarqa, 1989.
15. Nafah al-Tayyib min Ghosn al-Andalus al-Ratib, Ahmed bin Muhammad al-Tilmisani al-Maqri, investigation: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, 1968.
16. Nafah al-Tayyib min Ghosn al-Andalus al-Ratib Ahmad bin Muhammad al-Tilmisani al-Maqri, investigation: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, 1968.
17. Ammunition in the virtues of the people of the island, Ibn Bassam, Abu al-Hasan Ali al-Shantarini, investigation: Ihsan Abbas, Dar al-Thaqafa, Beirut, 1970
18. Al-Hillah Al-Sira'a, Abu Abdullah Muhammad Ibn Al-Abar, investigated by Hussein Mu'nis, 2nd edition, Dar Al-Ma'arif, Cairo, 1985. Seen Al-Diyarat, Abu Al-Faraj Abdul-Hussein Al-Isfahani, investigation: Jalil Al-Attiyah, Riyad Al-Rayes for Books and Publishing, London, Cyprus, 1991.
19. Al-Diyarat, Ali bin Muhammad Al-Shabashti, investigation: Korkis Awwad, 2nd edition, Al-Muthanna Library, Baghdad, 1966 For Studies and Publishing, Beirut, 1983
20. Abbreviation of Al-Qadhli in the local history Ibn Saeed, abbreviated by Abu Abdullah Muhammad bin Abdullah bin Khalil, investigation by Ibrahim Al-Anbari, Dar Al-Kitab Al-Lebanese, Beirut, (D.T.)
21. The proverbs of the common people in Andalusia, extracted from his book "Ray Al-Awam and Maree Al-Sawam", Abu Yahya Abdullah Al-Zagali, investigation by Muhammad bin Sharifa, Ministry of State in charge of Cultural Affairs and Higher Education, Fez, 1971.
23. The position of Muslims towards the people of the country in Andalusia, Issam Katea Daoud, Historical Studies, Issue Sixteen, June 2014